التغير الدلالي في كتب إعجاز القرآن
كتاب تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة أنموذجا

أ/ بولخصايم طارق
جامعة جيجل

تمهيد:

إن اللغة الإنسانية ظاهرة ووسيلة اجتماعية للتواصل و التعبير عن الأغراض و المصالح بين بني البشر ، فاللغة كما عرفها ابن جني " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" [1]، و العبارة الأخيرة من تعريفه تحيل إلى اجتماعية اللغة ، و هو تعريف يقترب جدا مما أقر به مؤسس علم اللغة في الغرب فاردينان دي سوسير في محاضراته من أن اللغة نظام من الرموز و مؤسسة اجتماعية [2].

ولما كانت الأغراض كثيرة و مصالح الحياة متنوعة ومستمرة لا تنقطع عبر الأزمنة و العصور المختلفة أيضا فإنه "قد تستعمل الألفاظ في معانيها التي و ضعت لها و أحيانا حرف بها إلى معاني جديدة ؛لأن الحياة متجددة لا تتوقف و الألفاظ محدودة ، فكان "لا بد أن تنقل معاني الألفاظ لتعبر عن هذا الجديد"،[3] و ما الألفاظ الإسلامية إلا لون من ألوان هذا التطور الذي عرض للفظة العربية البدوية القديمة فاستحالت شيئا آخر" يقتضيه الدين الجديدة و البيئة الجديدة" [4]

و المتأمل في تاريخ العربية الطويل فسوف يستنتج بأن " ألفاظها مرت بحيوات و ظواهر و أحداث اكتسبت فيها دلالات عبر ت عن مفاهيم حضارية و ثقافية بأدق التفاصيل ، كما نبذت و طرحت بعض الألفاظ و التعابير التي لم تعد تحمد في الاستعمال".[5]

ومن هنا كان أهم ما شغل علماء اللغة موضوع تغير المعنى و صور هذا التغير و أسباب حدوثه و العوامل التي تتدخل في حياة الألفاظ أو موتها. و لقد تساءل (**كوهن**) في صدر كتابه the diversity of meaning قائلا : هل يتغير المعنى؟ ثم أجاب قائلا:" إن نفس الكلمات- بسبب تطور اللغة خلال الزمن- تكتسب معنى آخر و تشرح فكرة أخرى ،و على هذا فإن مانعنيه بتغير المعنى هو تغير الكلمات لمعانيها .و يقول **أولمان**:

لقد سبق أن عرفنا المعنى بأنه علاقة متبادلة بين اللفظ و المدلول و على هذا يقع التغير في المعنى كلما وجد أي تغير في هذه العلاقة الأساسية".[6]

فاللغة إذن ، كائن حي ، "و ينبع هذا الإحياء في الخضوع لنواميس الارتقاء العام ،وخاصة ما يتعلق منها بإعمال العقل في الإنسان ، كاللغة و العادات و الديانات و الشرائع و العلوم و الآداب و نحوها فهذه تعد من ظواهر حياة الأمة ، و هي خاضعة لناموس النمو و التجدد ، و لكل هذه الظواهر تاريخ فلسفي طويل ، نعبر عنه بتاريخ تمدن الأمة ، أو تاريخ آدابها أو علومها ، أو حكوماتها أو أديانها ، أو نحو ذلك و هي أبحاث شائقة فيها فلسفة و نظر ومن هذا القبيل تاريخ اللغة و آدابها" .[7]

إن معاني الكلمات إذن لا تستقر على حال، بل هي في تغير مستمر لا يتوقف، "ومطالعة أحد معاجم العربية تبرهن على هذا التطور وتبين أن معاني الكلمات متغيرة من عصر إلى عصر."[8]

وهكذا ، نرى" أن الرجوع إلى المعاجم القديمة لا يجدي كثيرا في بحث دلالة الألفاظ ير الدلالة ، وعلى الباحث الرجوع إلى النصوص القديمة في الأدب و الاهتداء بهديها و دراسة الدلالة على ضوئها ."[9]

وللتغير الدلالي عوامل مختلفة تؤدي إليه، كما أن له مظاهر معينة يسلكها هذا التغير ، حيث "حاول رجال القواعد و علماء البلاغة جاهدين منذ أرسطو أن يخضعوا تغيرات المعنى لشيء من التنظيم و التقعيد ، غير أنهم حصروا جهودهم لقرون طويلة في تصنيف المجازات لأسباب جمالية أو أسلوبية ، و حين انتقل الأمر إلى علماء اللغة حاولوا تنظيم البحث عن عمليات انتقال المعنى دون اعتبار لمضموناتها الأدبية . و قد قدم اللغويون خطتين للتقسيم إحداهما الخطة المنطقية و الأخرى الخطة النفسية و بمزج الخطتين ودمج تقسيماتها نخرج بأشكال لتغير الدلالة كتعميم الدلالة و تضييقها و انحطاطها و نقلها."[10] وقد رأى بعض الباحثين المعاصرين " أن الكثير من حالات التغير والتحول الدلالي إنما هي نتيجة لسبل عديدة لا يسهل حصرها لتشعبها ولغرابتها كذلك"[11].

فتعميم الدلالة أو امتدادها مرادف لتوسيعها[12]:أي أنه يصبح عدد ما تشير إليه الكلمة أكثر من السابق أو يصبح مجال استعمالها أوسع من ذي قبل[13]، حيث يحدث الانتقال من

معنى خاص إلى معنى عام و يعد هذا الشكل قدم مساواة في الأهمية مع تضييق المعنى وإن كان الدكتور إبراهيم أنيس يرى" أن تعميم الدلالات أقل شيوعا في اللغات من تخصيصها وأقل أثراً في تطور الدلالات وتغيرها ".[14]

أما تضييق الدلالة وسماه إبراهيم أنيس تخصيص المعنى فهو اتجاه أخر عكس السابق ، و يعني ذلك "تحويل الدلالة من المعنى الكلي إلى المعنى الجزئي أو تضييق مجالها ، وعرفه بعضهم بأنه "تحديد معاني الكلمات و تقليلها"[15] ، فقد يحدث في سيرورة اللفظ عبر العصور "أن تضيق دلالته فيطرح بعض ماكانت تشتمل عليه من أشياء أو مسميات فيغدو المعنى الجديد مخصصا مقتصرا على جزء مما كان يشتمل عليه قبلا ".[16]

وهو ما نحاول الوقوف عليه من خلال هذه الدراسة. فقد استوعب علماء الإعجاز قديماً طرائق تأدية الدلالة من تخصيص لهذه الدلالة وتعميم لتلك أو تطور لدلالة لفظة إلى لفظة أخرى، وهذا ما سيتناوله بحثنا هذا إن شاء الله .، حيث إني وجدت أن معظم الإشارات التي تخدم هذا البحث مبثوثة في الكتب التي ألفت لخدمة القران الكريم ابتداء [17]. ومن هنا كان البحث في دلالة ألفاظ النص القرآني وتغيرها في بالغ الأهمية .، "وذلك لما يترتب عليها من أحكام شرعية وتفسيرات لغوية وفقهية وغيرها" .[18]

ومن أهم هذه المؤلفات كتاب الإتقان في علوم القران للسيوطي و جواهر القرآن للإمام الغزالي و الأشباه النظائر في القران الكريم لمقاتل بن سليمان البخلي و تأويل مشكل القران لابن قتيبة الذي اخترناه نموذجا لبحثنا ، هذا إلى جانب كثير من الكتب التي ألفت في علوم اللغة العربية و كانت الغاية منها أيضا خدمة الدين و النظر في أسرار القران الكريم ، ومن هؤلاء أبو هلال العسكري في مقدمة كتابه الصناعتين و البيان و التبيين للجاحظ و أدب الكاتب لابن قتيبة و الصاحبي لابن فارس و المزهر للسيوطي و غيرها .[19]

ابن قتيبة : موجز عن حياته و آثاره:

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة [20] المروزي الدينوري،و لد سنة 213 هـ و اختلف في مكان ولادته، فقيل بالكوفة [21] و قيل ببغداد ، و هو من أسرة فارسية كانت تقطن مدينة مرو.، و لذا نسب إليها فقيل المروزي و يقال له الدينوري نسبة إلى دينور.، لأنه ولي القضاء فيها فترة من الزمن .[22]

درس ابن قتيبة على أشهر علماء عصره ، فأخذ عنهم علما واسعا شمل مختلف النواحي الثقافية من حديث و لغة و تفسير و أدب و أخبار و غيرها ، و من أشهر شيوخه الذي روى عنهم والده مسلم بن قتيبة و أحمد بن سعيد اللحياني و ابن راهويه و أبو حاتم السجستاني و أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ،و قد اختلف المؤرخون في سنة وفاته فذكر ابن خلكان أنه توفي سنة 271 هـ [23] وذكر السيوطي [24] أنه توفي سنة 267 و أغلب الروايات على سنة 276.[25]

خلف ابن قتيبة كتبا كثيرة في مختلف المجالات .، حيث لم يكن متخصصا في فن من الفنون، بل ألف في شتى أنواع المعرفة وعلى كل فمن مؤلفاته ما وصل إلينا و استطعنا الوقوف عليه و منها ما ضاع فلم نعرف منها سوى الاسم فقط ،و أخرى نسبت إليه و ت الدارسون بطلانها ككتاب الإمامة و السياسة و الجراثيم . ومن أشهرها نذكر: الشعر و الشعراء و أدب الكاتب و الاختلاف في اللفظ و الرد على الجهمية و المشبهة ، الأشربة ، عيون الأخبار، المعارف ، المسائل و الأجوبة غريب الحديث تأويل مختلف الحديث و تأويل مشكل القرآن [26] و هو المؤلف الذي سنعرف به و بمضمونه كونه النموذج الذي اخترناه في تتبع الظاهرة محل البحث .

موضوع الكتاب و منهج المؤلف فيه

لقد وضع ابن قتيبة كتابة تأويل مشكل [27] القرآن للرد على الطاعنين في بلاغة القرآن من الملحدين "فبين ما غمض من معناه و فسر المشكل الذي ادعي على القرآن فساد النظم فيه ، و هو يقصد ببلاغة القرآن صحة التأليف الذي قطع أطماع الكائدين و عجيب النظم الذي دحض حيل المتكلفين ، و أفرد أبوابا تناولت بعض المباحث لاغية فهناك أبواب المجاز و الاستعارة و المقلوب و الحذف و الاختصار و تكرار الكلام و الكناية و التعريض و مخالفة ظاهر اللفظ معناه ،كما لم يغفل الناحية اللغوية فتناول

غريب لغة القرآن في جميع السور و اللفظ الواحد للمعاني المختلفة و حروف المعاني و دخول بعض حروف الصفات مكان بعض" [28]

وكان في الرد على الملاحدة و الطاعنين الجاهلين يعتمد أساليب العربية .، "حيث عرض فيه لآي الذكر الحكيم مستشهدا لها بنصوص الشعر ليقيم الدليل على ما يقوله هؤلاء و كأنه يستمد في ذلك من عمل الجاحظ في الحيوان إزاء بعض الآيات القرآنية بتوجيه معناها لسديد و بيان دلالاتها من خلال المجاز و الاستعارة "[29] . يقول ابن قتيبة : "فالعرب تستعير مة فتضعها مكان الكلمة، إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى، أو مجاوراً لها، أو مشاكلاً، فيقولون للنبات : نوء، لأنه يكون عن النوء عندهم.. ويقولون للمطر : سماء، لأنه من السماء ينزل.." [30]

فهو يشير إلى المجاز المرسل وبعض علاقاته، ومنها : السببية، والمجاورة، والمحلية. [31]على طريقة العرب في التعبير و الاستعمال ، و يفيض في تفسير بعض أي الذكر الحكيم مصورا وجوه من المجاز و البيان و يعقد فصلا للألفاظ المتعددة المعاني مبينا أن المعاني ترجع في كل لفظة إلى معنى أصلي واحد كما يعقد فصلا أخر لحروف المعاني مثل "**كيف**" و ما تخرج إليه ، و يعرض لتبادل الحروف في العبارات **فمن** مثلا تأتي بدلا من **عن** و بذلك ينتهي الكتاب . [32]

تخصيص و تعميم الدلالة في المؤلف

أولاً – تخصيص أو تضييق الدلالة:–

و هو ما وضع في الأصل عاما ثم خص في الاستعمال ببعض أفراده و هو قليل في اللغة ومنه "السبت" فإنه في اللغة الدهر ثم خص في الاستعمال بأحد أيام الأسبوع و هو فرد من أفراد الدهر. [33]ونحو "البغض" فهو عام و الفرك فيما بين الزوجين خاص[34]فالمقصود إذا أن اللفظ وضع لمدلول واحد أو لأفراد محصورين وهو بذلك يحمل دلالة خاصة تحددها قرائن التخصيص[35]فنحصل على ما يسمى بتخصيص الدلالة أو تضييق المعنى[36]، وهو بتعبير آخر: تحويل الدلالة من المعنى الكلي إلى المعنى الجزئي أو تضييق مجالها[37]. وقد تحدث السيوطي عن هذا الموضوع فيما أسماه "بالعام المخصوص: وهو ما وضع في الأصل عاماً، ثم خص في

الاستعمال ببعض أفراده"[38] وقد ذكر له أمثلة متعددة منه "إن الحج أصله قصدك الشيء وتجريدك له، ثم خص بقصد البيت"[39].

وإذا عدنا إلى علماء الإعجاز نجدهم قد تناولوا هذه الظاهرة بنسب متفاوتة، كل حسب أسلوبه .

أما ابن قتيبة فكانت وقفاته تشير إلى أننا أمام عالم يستوعب الموضوع بكل أبعاده إذ يتكلم على هذه القضية مستوعباً المصطلح الذي هو بإزائه، وقد تحدث عن هذا المبحث تحت عنوان: عام يراد به خاص[40].

ومن ذلك قول الله عز وجل حكاية عن النبي ص: قال تعالى : قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ [الأنعام:163]، وحكاية عن موسى: وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤمِنِينَ [الأعراف:143]. يقول ابن قتيبة: ولم يرد كل المسلمين والمؤمنين؛ لأن الأنبياء قبلهما كانوا مؤمنين ومسلمين؛ وإنما أراد مؤمني زمانه ومسلميه .[41]

ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿**إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33)**]، يقول: (ولم يصطفهم على محمد ، ولا أممهم على أمته، ألا تراه يقول: كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ [آل عمران:110]، وإنما أراد عالمي أزمنتهم)[42]

وذكر ابن قتيبة أمثلةً كثيرةً من كتاب الله تعالى على تخصيص العام ومن ذلك قول الله تعالى : قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [الحجرات:14]؛ (وإنما قاله فريق من الأعراب)[43]

وقول الله عز وجل: ﴿الشعراء يتبعهم الغاوون ألم ترى أنهم في كل وادي يهيمون وأنهم يقولون ما لايفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا و سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ [الشعراء:224-227] ، يقول: (ولم يرد كل الشعراء)[44]

ومن ذلك قول الله تعالى: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ [آل عمران:173]، يقول: (وإنما قاله: نعيم بن مسعود، لأصحاب محمد ص (إن الناس قد جمعوا لكم)، يعني: أبا سفيان، وعيينة بن حصن، ومالك بن عوف)[45]

وقوله:قال تعالى:وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ[الذاريات:56]،(يريد المؤمنين منهم يدلك على ذلك قوله في موضع آخر:وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ [الأعراف:179]، أي:خلقنا)[46]

وقوله عز وجل: يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون:51]، (يريد النبي وحده)[47] . وقد يحتوي السياق على لفظ جمع والمقصود واحد أو اثنان، ومن ذلك قول الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .][الحجرات:4-5]، (هو رجل واحد ناداه: يا محمد، إن مدحي زين، وإن شتمي شين. فخرج إليه النبي، ص فقال: (ويلك، ذاك الله عز وجل).[48] ونزلت الآية[49]

وقول الله تعالى: الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور:26]، (يعني عائشة وصفوان ابن المعطل[50] وفي قوله تعالى: (كمثل غيث أعجب الكفار نباته) [الحديد:20] أشار ابن قتيبة إلى قول الطاعنين الذين قالوا وما معنى قوله : كمثل غيث أعجب الكفار نباته ؟ و لم خص الكفار دون المؤمنين ؟ أو ليس هذا مما يستوي فيه المؤمنون و الكافرون و لا ينقص إيمان المؤمنين إن أعجبهم؟[51] ثم أخذ ببيان الآية فقال: و قوله (كمثل غيث أعجب الكفارَ نباتُه) فإنما يريد بالكفار الزراع واحدهم كافر و إنما

سمي كافرا .،لأنه إذا ألقى البذر في الأرض كفره أي غطاه و كل شيء غطيته فقد كفرته، ومنه قيل تكفر فلان في السلاح إذا تغطى و منه قيل لليل الكافر.، لأنه يستر بظلمته كل شيء ومنه قول الشاعر :

يعلو طريقة متنها متواترا * في ليلة كفر النجومَ غمامُها معلقة لبيد

أي غطاها ، وهذا مثل قوله تعالى :(يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار) [52]

ثانيا /تعميم أو توسيع الدلالة:

و هو كما أشرنا أقل شيوعا في اللغات من تخصيصها و أقل ، ويبدو لي أن ابن قتيبة كان أكثر استيعاباً للمسألة ، و يمكن أن نقول إن وقفات ابن قتيبة في تعميم الدلالة لاتقل أهمية عن وقفات الجاحظ، ففي قول الله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فؤادك ورتلناه ترتيلا) الفرقان:32. يقول ابن قتيبة: (الخطاب للنبي ص، والمراد بالتثبيت هو والمؤمنون)[53]، فالدلالة هنا عامة .

ومن ذلك قول الله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا *وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا * مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ الأحزاب: [الأحزاب:1]. يقول أيضاً: (الخطاب للنبي ص، والمراد بالوصية والعظة المؤمنون، يدلك على ذلك أنه قال: وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا [الأحزاب2]، ولم يقل بما تعمل خبيرا) [54]

وقد ذكر ابن قتيبة أمثلةً كثيرة[55] على تعميم الدلالة ومن ذلك قول الله تعالى: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ [الانفطار:6]، وقوله: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾[الانشقاق:6]، وقوله: وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ* [الزمر:8]، يقول ابن قتيبة: (لم يرد في جميع هذا إنساناً بعينه، إنما هو لجماعة الناس.

ومثله قول الشاعر:

إذا كنت متخذاً صاحباً فلاتصحبنَّ فتىً دارميًّا [56]

فالشاعر لم يقصد شخصا بعينه وإنما أي شخص من دارم ليس أهلاً للصحبة، وهذا البيت يحمل شحنة إيحائية عالية في الهجاء .

كما كان ابن قتيبة أكثر من سابقيه تأصيلاً لهذا الموضوع ولاسيما عند حديثه عن الاستعارة والمجاز [57] ففي الاستعارة يقول: العرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة، إذا كان المسمى بسبب من الآخر، أو مجاوراً لها، أو مشاكلاً. فيقول للنبات: نوء لأنه يكون عن النوء عندهم.

قال رؤية بن العجاج [58] :

وجفَّ أنواءُ الرَّبيعِ المُرْتَزَقْ

أي: جف البقل. ويقولون للمطر: سماء؛ لأنه من السماء ينزل، فيقال: ما زلنا نطأ السماء حتى أتيناكم. قال الشاعر [59] .

إِذَا سَقَطَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَومٍ رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غِضَابَا

ويقولون ضحكت الأرض: إذا أنبتت [60]

وأمثلة ذلك كثير [61] ، منها قول الله عز وجل: وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ [الانشراح2]، (أي: إثمك. وأصل الوزر: ما حمله الإنسان على ظهره. قال الله عز وجل: قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ [طه:87]، أي: أحمالاً من حليهم، فشبه الإثم بالحمل، فجعل مكانه، وقال في موضع آخر: وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ [العنكبوت:13]، يريد: آثامهم[62]

وقول الله عز وجل: ولوْ تقول علينا بعْض الْأقاوِيلِ لأخذْنا مِنْهُ بِالْيمِينِ (45) ثُمّ لقطعْنا مِنْهُ الْوتِين [الحاقة:44-46].

يقول ابن قتيبة: (قال ابن عباس: اليمين هنا: القوة. وإنما أقام اليمين مقام القوة، لأن قوة كل شيء في ميامنه. [63]

خاتمة

قد عرفنا من خلال هذه الدراسة الموجزة أهمية علم الدلالة في فهم معاني القرآن وإعجازه ، وأن اللغات الإنسانية واللغة العربية إحداها في حالة تطور مستمر وبخاصة في مجال

الدلالة، وقد وقفنا بشكل موجز عند العوامل والأسباب التي تؤدي إلى التغير الدلالي ،كما وقفنا عند المظاهر التي يتجلى فيها التطور الدلالي، ومن أهمها : تخصيص الدلالة وتعميمها نالها من مجال إلى مجال آخر، بعلاقة المشابهة كما في الاستعارة، أو بغير علاقة المشابهة كما في المجاز المرسل.

و أشرنا خلال هذا البحث أن علماء العربية قد تنبهوا لظاهرة التغير الدلالي في لغة ، وذكروا كثيراً من المفردات التي تطورت دلالاتها مما يدل على إلمامهم وإحاطتهم بهذا العلم .، لكون اللغة –كما أشرنا– كائنا حيا تنمو وتتطور بتطور الإنسان، والذي يحدد التغير الدلالي هو الاستعمال الذي يساير متطلبات الحياة الإنسانية بكل اتجاهاتها.

وقد استوعب علماء الإعجاز قديماً طرائق تأدية الدلالة من تخصيص لهذه الدلالة وتعميم لتلك أو تغير لدلالة لفظة إلى لفظة أخرى، وهذا ما حاولنا إثباته من خلال ما قدمه ابن قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآن و الذي يمثل بدوره مرحلة نضج مبكرة في المباحث الدلالية .حيث اعتمد ابن قتيبة ما اعتمده علماء الإعجاز في القرآن الكريم على التفسير بالسياق، أو ما يسمى بالدلالة السياقية؛ فهم لم يعترفوا بما يسمى بالظواهر الدلالية؛ لأن لكل لفظة معنى واحداً لا يتعداه.

ولا ننكر جهود علماء العربية المعاصرين الذين قَعَّدوا لهذا العلم من خلال اطلاعهم على الدراسات العالمية في هذا المجال، والذين أغنوا مباحثه بالأمثلة الكثيرة من كلام العرب في القديم والحديث.

الهوامش

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً:

1. ابن جني :الخصائص، تحقيق محمد على النجار ، عالم الكتب بيروت ،ط1 .2006. 33/1
2. ferdenand de Saussure .cours de linguistique générale, -édition talantikit Bejaïa Algérie 2002 ,p13-22
3. د عليان بن محمد الحازمي :علم الدلالة عند العرب/ مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة و اللغة العربية و آدابها ج15 ع 27 جمادى الثاني 1424هـ ص**714**

4. السامرائي إبراهيم: التطور اللغوي التاريخي. دار الأندلس، بيروت، 1997، ص47
5. د عليان بن محمد الحازمي : نفسه .ص:714
6. أحمد مختار عمر :علم الدلالة .ص: 235 - 236
7. جرجي زيدان :اللغة العربية كائن حي ، دار الجيل بيروت لبنان ط2 . 1988 ص:9
8. د. حسين حامد الصالح مجلة الدراسات الاجتماعية العدد15 يونيو كلية التربية جامعة صنعاء 2003. ص65
9. إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ ، المكتبة الانجلو مصرية ،ط5. 1985 .ص251
10. أحمد مختار عمر :السابق .ص: 243-244
11. دحسين حامد الصالح : السابق ص :70 وفايز الداية ، علم الدلالة العربي .دار الفكر المعاصرص: 266
12. ينظر فايز الداية :نفسه ص: و ينظر مهدي اسعد عرار ،التطور الدلالي الإشكال و الأشكال و الأمثال. دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط2003.1 ص:182.
13. أحمد مختار عمر : السابق ص243-.244
14. احمد مختار عمر: نفسه 154
15. أحمد مختار عمر: نفسه 245
16. مهدي اسعد عرار :السابق .ص:182-183
17. د. حسين حامد الصالح :السابق .ص:65
18. ينظر: مازن المبارك: نحو وعي لغوي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ط 1985ص 108-109. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية :" لا بد في تفسير القران و الحديث من أن يعرف ما يدل عليه مراد الله و رسوله صلى الله عليه و سلم من الألفاظ و كيف يفهم كلامه ، فمعرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله و رسوله بكلامه ، و كذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب فإنهم صاروا يحملون كلام الله و رسوله على ما يدعون أنه دال عليه و لا يكون الأمر كذلك ".ينظر:ابن تيمية: ،الإيمان ، المكتب الإسلامي بيروت . الطبعة : الرابعة - 1413 هـ- 1993 م تحقيق:خرج أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني ص: 111 و توظيف ابن قتيبة للغة للدفاع عن القرآن الكريم. ماجستير،إعداد يوسف بن صامل بن صويمل العلياني السلمي جامعة أم القرى 2002 ص: 73
19. عودة خليل أبو عودة : التطور الدلالي بين لغة الشعر و لغة القرآن الكريم . دراسة دلالية مقارنة مكتبة المنار ، الأردن، ط1 . 1985 ص:34-35

20. أبو الطيب اللغوي : مراتب النحويين تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الفكر العربي 2009: ص: 136
21. كمال الدين الأنباري : نزهة الألباء ، تحقيق إبراهيم السامرائي ، مكتبة المنار، الزرقاء الأردن ط3 1985 ص 159 والقفطي ، انباه الرواة ،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ،دار الكتب و الوثائق القومية ط1 1950
22. ينظر : مقدمة تأويل مشكل القرآن- عبد الله بن مسلم بن قتيبة ت (276هـ)- شرحه ونشره السيد أحمد صقر- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- الطبعة الثالثة- (1401هـ-1981م). و مقدمة أدب الكاتب لابن قتيبة شرح أ/علي فاعور .دار الكتب العلمية .بيروت
23. ابن خلكان : وفيات الأعيان ،تحقيق إحسان عباس ،ط: دار صادر بيروت 1900 . 43/3
24. السيوطي جلال الدين : بغية الوعاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2 دار الفكر 1979 64/2/
25. ابن خلكان : وفيات الأعيان 44/3
26. ينظر مقدمة تأويل مشكل القرآن- عبد الله بن مسلم بن قتيبة
27. المشكل من أشكل أي المتشابه وأشكل أي دخل في شكل غيره فأشبهه و شاكله ثم يقال لما غمض-و إن لم يكن غموضه من هذه الجهة مشكل فكان المشكل أو المتشابه في القران عند ابن قتيبة كل ما غمض و دق لاستتار المعاني المختلفة تحت لفظه .ينظر: قضية الإعجاز ألقراني و أثرها في تدوين البلاغة العربية ،د عبد العزيز المعطي عرفة. عالم الكتب. ص 224
28. د. محمد رفعت زنجير : مباحث في البلاغة و إعجاز القران الكريم ط1 2007 طبع سلسلة جائزة دبي الدولية للقران الكريم 141ص
29. زل كثير من الطاعنين في القران الكريم في معاني بعض المفردات و أولوها على حسب عقائدهم و ما تقتضيه عقولهم القاصرة و ذلك للطعن و النيل من القران الكريم ، فاخذوا في بيان التناقضات فيه حسب زعمهم ، و هذا يعود الى جهلهم بأصول اللغة العربية و معرفة ما تدل عليه المفردات حيث تدل كلمة ما على معنى و في آية أخرى و سياق آخر تدل على معنى آخر . و ابن قتيبة تصدى لهؤلاء فيما أولوه من آيات و ما اتخذوا ه مطعنا في القران الكريم فأزال شبهاتهم و دحضها بأقواله مستشهدا بالقرآن و الحديث و كلام العرب مبينا فساد أقوالهم و عدم صحتها في لغة العرب .ينظر: توظيف ابن قتيبة اللغة للدفاع عن القرآن الكريم ، الباب الثاني الفصل الأول ص 73 وما بعدها و ينظر:جهود الإمام ابن قتيبة ومنهجه في علوم القرآن عرضا و دراسة، دكتوراه في علوم القرآن . إعداد سعد بن مبارك بن سعد الدوسري ، إشراف د.

بدر بن ناصر البدر .جامعة الإمام بن سعود الإسلامية 2011 .الباب الأول . مطلب تأويل مشكل القرآن ص51 و ما بعدها.

30. ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ص: 135.
31. د حسين حامد الصالح : المقال ص: 88
32. شوقي ضيف : البلاغة تطور و تاريخ ،ط 2 دار المعارف بمصر 2003. ص: 58 -60
33. إبراهيم أنيس:دلالة الألفاظ ص:623
34. إبراهيم أنيس :نفسه ص: 624
35. طاهر سليمان حمودة : دراسة المعنى عند الأصوليين دار الجميل للنشر والتوزيع ص: 23
36. ينظر المصدر نفسه: 37-57
37. إبراهيم أنيس :دلالة الألفاظ ص 152
38. ينظر : ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة ترجمة، تحقيق: كمال بشر دار غريب 1997 ص : 180، و د. أحمد مختار عمر: علم الدلالة ص: 245.
39. أحمد مختار عمر:نفسه ص 245
40. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، المزهر في علوم اللغة (تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين، د.ت، دار الفكر، بيروت. 427/1
41. ينظر نفسه: 427/1
42. تأويل مشكل القرآن: 281-284
43. تأويل مشكل القرآن: 281
44. نفسه: 281
45. نفسه: 281.
46. نفسه: 281.
47. نفسه: 282
48. تأويل مشكل القرآن: 282.
49. (ذاك الله عز وجل) لفظ الحديث بدون ويلك، سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر : 387/5
50. تأويل مشكل القرآن: 283.
51. تأويل مشكل القرآن: 232

52. تأويل مشكل القران 75و توظيف ابن قتيبة للغة للدفاع عن القرآن الكريم ماجستير إعداد يوسف بن صامل بن صويمل العلياني السلمي جلمعة لم القرى 2002 ص 97 وينظر: دلالة الألفاظ ،ابراهيم انيس ، المكتبة الانجلو مصرية 1985 ص 05
53. تأويل مشكل القرآن: 232
54. نفسه: 270
55. ينظر نفسه: 270-274
56. تأويل مشكل القرآن: 273
57. تأويل مشكل القرآن: 135-184
58. مجموع أشعار العرب:105، ونص البيت:

وخَفَّ أنواءُ الرَّبِيعِ المُرْتَزِقْ واسْتَنَّ أعْرافُ السَّفَا على القِيَقْ

59. البيت لمعود الحكماء معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري .
60. تأويل مشكل القرآن: 135
61. ينظر نفسه: 135-184.
62. نفسه: 140
63. نفسه: 154